مكتبة القصة

"ادجار ألن بو" دراسة ونماذج من قصصه

للدكتور أمين روفائيل

نقد بقلم: محمود تيمور

من مطالعة وافية لما أنتج « بو » خلال حياته القصيرة الخصبة ، ومن احاطة شاملة بما كتب المؤرخون فى سيرته ، وما تناول به الناقدون أدبه وفنه ، وفى ضوء كفاية متخصصة قادرة على فهم جوانب الموضوع ، لا تعوزها أسباب الموازنة والترجيح وفى أسارب متزن ، تتوافر له السلاسة والنصوع ، الى الاصالة فى انتقاء الالفاظ المعبرة ، والمواضعات النقدية الواضحة — قدم لنا الأستاذ الدكتور « أمين روفائيل» دراسة مستفيضة لأديب يعد صائغ القصة القصيرة فى شكلها الحديث ، وأول من نظر اليها على أنها لون مستقل من ألوان الأدب ، هو القاص الأمريكى : « ادجار ألان بو » ، وكذلك قدم المؤلف مع الدراسة ترجمة ثلاث قصص نموذجية .

وليس هذا الكتاب من طراز كتب التراجم التى تتبع مراحل الحياة الشخصية تتبعا يقوم على أحداث تاريخية مجردة ، ويعول على أرقام وأسانيد ، وفيه تتزاحم نقول وشواهد ، ولكنه بحث أدبى رفيع ، وجهد موضوعى عميق ، ينفذ الى الصميم من عمل « بو » ، فيكشف عن خصائصه ، ويستخلص حقائقه ، ويستبطن أسراره ، ويجلو ذلك كله فى صورة جميلة سهرت على تنسيقها خطة مدروسة فى احكام ودقة ، هدفها ألا تعرض حياة الأديب فى مراحلها الماضية ، بقدر ماتعرض فنه موضوعات حية نابضة باقية .

والاستاذ الدكتور « أمين روفائيل » أديب يحب « بو » ولكنه لا يحابيه ، فقد التزم الأمانة فى العرض ، والعدالة فى الحكم . انكر على المؤرخ الأول لسيرة « بو » أنه أسرف فى اتهامه ، وشطط فى التنديد بأخلاقه وشيمه ، وأراد التشهير به ، والتشنيع عليه. بيد أن مؤلفنا مع انكاره ذلك عرض ماكان «لبو» من أخلاق وشيم ، فى منحى لا يجنح الى شنعة وتسوىء سمعة ، واجتنب فى الوصف والتقرير كل تعبير فيه حموضة أو غضاضة ، ورد كل خليقة الى مناشئها من ملابسات الحياة ، ووقف بها عند حدودها فى غير اسراف ولا عدوان .

ينقل لنا المؤلف أن ذلك المؤرخ الأول لسيرة « بو » رسم له صورة مشوهة بالافتراء ، منوثة بالمثالب ، رماه بالحسد ، ونكران الجميل ، والضيق بمن يخالفه ،

والاستعلاء والغرور وعداوة الناس ، الرغبة فى الظهور والامتياز ، وبأنه سكير فاجر لا حظ له فى صلاته بالنساء من حياء أو احتشام • ولا يحفل بما يمليه الشرف والضمير ••• فاذا مضى بنا المؤلف فى تحليل حياة « بو » وتعليل مافيها قال فى مواضع شتى من كتابه : « ان صدره كان يحتدم بالسخط لشعوره بأنه لم ينل من الجزاء ماكان يستحقه ، وأن الشدائد التى لاقاها روت بذور علله النفسية التى بذرت فى طفولته ، وقد ظهرت أعراض هذه العلل فى خصاله وأخلاقه ، فهو قلق ، تدفعه شدة حساسيته الى المشادة والخصام ، منقسم على نفسه ، متقلب المزاج ، عطوف رقيق الشمائل، صلف متهور سريع الغضب، منهوك الأعصاب قليل الأصدقاء ، سىء الظن بالناس ، يتسلط عليه ارتياب مرضى بهم ، وقد بدد قواه بانسياقه للشراب فى الحالات الوضـــيعة • وجعل يتنقل بحبه من امرأة الى اخرى • احب شـــاعرة متزوجة ، ثم أحب من عنيت به بعد موت زوجته ، وتوله بشاعرة تكبره ، وفى الوقت نفسه كان شديد الكلف بامرأة أخرى ، ثم جدد آخر الأمر علاقته بحبيبة صباه • وان قصته «ويليام ويلسون» التى تصور ضمير الآثم مصدرا للقلق والعذاب وليست فى حقيقة أمرها الا صفحات من حياته النفسية ، فهو لم يكتبها على أنها قصة ، ولكنها اعترافات فى صورة رمزية ••• »

وهكذا لم يغفل باحثنا الأديب من سلوك « بو » ماقد يشينه ، حين تناول طرفا من حياته ، ولم يهمل من فنه مايؤخذ عليه ، وهو يحلل أعماله • ومع ذلك وفق كل التوفيق فى أن يحملنا ــ فيما قدم من تحرير سيرته ، وتقويم فنه ــ على أن نقدر الرجل قدره ، ونستشعر له فيما امتحن به الرثاء والاشفاق •

افتتح المؤلف كتابه بطرف من سيرة « بو » ثم أجمل نظريته فى الشعر ومانظم منه ، وعرض بعد ذلك تحوله الى القصة ونظريته فيها ، ثم عقد فصلا فى صناعة بو للقصة ، ولم يستغرق بهذه النواحى جميعا الا نحو النصف من الكتاب ، واستقل النصف الآخر بعرض وتحليل لبعض القصص فى جوانبها المتعددة : التعذيب والانتقام ، والحالات المرضـــية ، وتأثير الاثم فى النفس ، والموت ، والكشـــف عن مشكلات مستغلقة •

ويلخص المؤلف نظرية « بو » فى الشعر بأن التعبير الموسيقى خاصة أساسية فيه ، وأن غايته المتعة غير المحددة ، أى المتعة التى ليس مصدرها التصريح والمعانى الواضحة، فالشعر قوامه التلميح والايماء . واذا كان العقل غايته الحقيقة، والضمير شغله الواجب ، فالشعر لا يتصل بالتعليم والأخلاق ، بل يتصل بالروح التواقة الى الجمال ، والمقصود بالجمال هو الجمال السماوى المثالى الذى يحسه المرء فى نشوة من عالم أكثر بهاء ورونقا من العـــالم المرئى • ولما كانت المنظومة مهمتها أن تهيج الروح ، لزم أن تكون محدودة ، لأن ألوان الاهتياج الرفيع قصيرة عابرة • والعمل الأدبى ليس فيض العبقرية ، بل هو عمل منظم مروى فيه ، فالشاعر ليس برجل ملهم ، بل هو صانع ذكى ، من صـــفاته التروى واحتمال الجهـــد ويقظة الفكر • ويصارحنا المؤلف بأن « بو » صاغ نظريته فى الشعر متأثرا بما نظم منه ، فالمنظومية

الغنائية القصيرة هى التى برع فيها ، والموضوعات التى ينادى بها هى الموضوعات التى كان بها مشغوفا .

ثم يبسط المؤلف نظرية « بو » فى القصة القصيرة ، فهى تقوم على مبادىء وأسس جمالية ، أهمها : أنه يكره لها أن تكون أداة لتقويم الاخلاق والعقول ، أو أن تطابق الواقع ، فانها لا تحمل رسالة اجتماعية أو مغزى أخلاقيا ، ولا تقدم شرائح من الحياة ولكن غرضها أن تترك فى نفس القارىء أثرا محددا ، فمعيار العمل الفنى هو الهدف الذى يحققه ، والأثر الذى يطبعه ، بما يثيره من شعور الخوف والاستشباع أو مايشبه ذلك من مشاعر . وعناصر تهيئة الأثر عنده هى الأحداث المفزعة . والشخوص ، والأمكنة بما حوت من ابنية ومناظر والوان واضواء وأستار ، والوسيلة الى انفاذ ذلك ليس الاستلهام من الملأ الأعلى ، بل اتقان الصنعة ، والتأليف بين العناصر . وحصر الانتباه لغرض والرسم الواضح المتماسك للعمل الفنى .

ويشرح لنا المؤلف كيف أن صاحبه « بو » قد التزم ذلك كله فى قصصه . فنجح فى بناء الجو ، وحقق التكامل بين العناصر ، واوتى قدرة على اضفاء مسحة الحقيقة على التجارب الغريبة ، حتى لنصدق المحال حين يقدمه . وتميز أسلوبه القصصى باستهلال له ما لرنين جرس يبعث الانتباه ، كما تميز بحرص على التركيز . وقيد نفسه فى الشخوص بعدد محدود ، وفى الأمكنة بأضيقها ، وفى الأحداث بما هو قليل .

ويقول المؤلف فى التعليق على نظرية « بو » فى القصة فى صفحة ٧٥ : « انه لم يكتف باستنان قواعد نظرية ، بل ذهب وراء هذا الى التزامها ، على عسرها ، فى عدة قصص أثبت فيها صحة تلك القواعد ... » وهذا القول يشعر بأن استنان القواعد سابق على تأليف القصص ، ولا أحسب ذلك صحيحا على اطلاقه ، والمؤلف يشير فى غير موضع من كتابه الى أن « بو » متأثر فيما قعد للشعر ، وفيما شرع للقصة ، بما نظم وما كتب ، وأنه كان مهيأ بطبعه وأحداث حياته ، وبميوله ومنازعه ، لما جرى به قلمه . وقد رأينا المؤلف فى شرح نظرية « بو » فى الشعر ينادى بأنه صاغها متأثرا بما نظم منه . أفليس من الحق أيضا أنه صاغ نظريته فى القصة متأثرا بما كتب من ألوانها ؟

وقد وصف لنا المؤلف عالم « بو » فى أهم أنواع قصصه ، وهو نوع « القصص القوطية » ، فقال فى ص ٦٥ :

« أنشأ فيما كتب منه عالما غريبا موحشا حزينا ، لا تهب فيه نسمات الحياة ، ولا تكاد أشعة الشمس تسطع عليه ، فلا تراه فى معظم الأحيان الا فى جوف الليل البهيم ، أو عصر يوم من أيام الشتاء ، أو خلال يوم ساكن فى الخريف تحت سماء ملبدة بالغيوم — عالم تتوارد فيه أحداث خارقة ، تتحدى العقل وسنن الطبيعة ، فنسمع هتفات من وراء الغيب ، ونشهد موتى يبعثون من القبور ، وأرواحا تحل فى غير أجسادها وتقع فيه أفعال بالغة القسوة ، بعيدة عن تجاربنا اليومية ، تشبه تلك

التى تتفزع منها فى كابوس ثقيل ، وهو عالم تستعر فيه روح الانتقام ، ويؤرقه وخز الضمير ، ويتفاقم فيه المرض : مرض الجسد والروح والعقل ، ويجوس شبح الموت ... »

وهذا الوصف يسم فن « بو » بميسم خاص ، يبعد به عن أن يكون فنا طليقا شاملا صادقا على الحياة والأحياء ، فى المستوى العام . ولكنه مع ذلك يبقى مستقلا متميزا بما فيه من جوهر انسانى صحيح . وقد أحسن المؤلف حين ألمع الى هذا الجوهر بقوله فى خاتمة كتابه ص ٢٣٥ :

ينثر فى قصصه ما يدور فى رأسه من خواطر وتأملات جادة حول الحيـــاة ، تصورها ـ بما فيها من بؤس وألم وتغير واضطراب ـ مأساة من جميع وجوههـــا ويصور فى الناس الأنانية والمخادعة ، والقسوة والعوج والالتواء .

ويبدو أن حرص المؤلف على دقة القوالب التى أفرغ فيها فصول كتابه ، اضطره الى ادماج خطوط عريضة من البحث فى مجراها الطبيعى ، ولو أفرد لها مكانا مستقلا لوجد فيه للقول مجالا أوسع ، ومن ذلك استطراده الى خاصة الرمز فى شعر « بو » ونثره ، وذلك فى عرض التحليل لقصة «سقوط بيت أشر » . وكذلك استطراده الى تصوير « بو » لنسائه متشابهات غير متنوعات ، وتعليل هواة علم النفس لهذا فى ضوء منهج «فرويد» ، وذلك فى عرض تحليل ما كتب « بو » من قصص الموت .

ولعل قارئنا العربى كان يرتقب أن يتجه المؤلف بجانب من بحثه الى تأثر «بو» بتراث الشرق فى الأدب والثقافة ، فقد كانت القصص والأساطير الشرقية مصـــدر الهام وايحاء له فى مثل قصة «الموعد» التى تنقل لنا الجو الواضح لقصر من قصور «ألف ليلة وليلة» ، وان كثيرا من الصور والمشاهد والتشابيه التى حفلت بها قصصه المستوحى من مصادر عربية بخاصة أو شرقية بوجه عام ، ولا يفوت قارىء أن يلمح الصلة بين تمثيل نور الله فى آيات من «القرآن» وتصوير «بو» لتلك التى ســماها «هيلانة» ووصفها فى احدى قصائده بأنها من عالم قدسى ، تمثال فى مشكاة متألقة ، بيده مصباح ، رمز للحسن الكامل ، حسن الاهة من عالم آخر ، تحف بها هالة من الجمال والاشراق السماوى .

وأما ترجمة الدكتور أمين روفائيل للنماذج الثلاثة من قصص « بو » : الموعد ولايجيا ، وويليام ويلسون ، فهى على نحو ما عهدناه منه فى المجموعة القصصية التى أخرجها قديما : «شجرة التفاح» والمجموعة التى أخرجها حديثـــا : «سبع قصص» يلتزم جاهدا أن يقدم لك الاصل فى دقة الناقل الامين ، ولكنه مع ذلك يمتعك بأداء عربى مبين .

محمود تيمور